تأملات في ضيق

الفقراء لا تاريخ لهم، لا يصنعون الحدث. ما الفائدة في ان أتساءل من أين جاْء أهلي. هم ككل مساكين الارض لا يجيئون من فعل، الكبار فقط يجيئون من الفعل أو يجيء منهم. الثابت انهم سكنوا كورة في لبنان قبل ان يزرع فيها الزيتون، انهم كانوا إذاً في اللاشيء. ربما نزحوا من حوران كما أريد ان أفكر. انهم إذاً نشأوا في القحط. ولما هبطوا الى حارة النصارى ظنوا انهم على بعض وجود. اغلق عليهم فيها وقيل ان هذا كان لحمايتهم. حماية ممن؟ الجائعون في الطرف الآخر من المدينة ما كانوا خطرا على أحد. الحكام يجعلونك في غمرات الموت. الكل مغلق عليه في القهر. المدينة حارات المقهورين وقصر أو قصران لا يصل اليهما أحد.

أظن اني لم أخرج من حارة النصارى ولو رحلت الى أقصى الارض. ذلك انك تنجو من مؤاتية الزمان الى الكنيسة. والكنيسة ليست من هذا الزمان فاذا دخلتها تنعتق من جفاف حوران ومن بقعة ما كان فيها زيتون ومن حبس النصارى في حي أريد لهم أو عليهم. هناك فقط تنعتق من حزن الحي، من كابوس الأزمنة التي لم تصنع ومن الدهليز المظلم الذي كان يقودني الى بيت جدتي لامي. سكنت كل دهاليز الماضي. كل الماضي عتمات أقبية ورطوبة انثنت في عظامي. كل شيء كان يقضي عليك باعوجاج الحوض، بشيخوخة العظام، بامحاء الذاكرة أو بالغائها. ممنوع على عظامك ان تستقيم.

أنا فقير من حارة النصارى. هذا هو تحديدي. والفقراء لا يصرخون. وممنوع عليهم البكاء لأن البكاء وجود. لذلك يذهبون الى الكنيسة حيث يستطيعون ان ينشدوا. والانشاد خاصة الملائكة. لا علاقة له بالزمان. وهناك لا يرى دموعهم الا الكاهن وهو أيضا ليس من الزمان. ويقبلون كتبا من الشعر اليوناني معربة نثرا يتكلمون فيها عن القديسين الذين بترت اعضاؤهم أو قطعت اعناقهم أو احرقت أجسادهم او القوا الى الوحوش. وبعد ان يقرأوا كل ذلك حسب نواميس دقيقة وعلى الحان ممنوع فيها الطرب يوغلون في النسك ليعرفوا أكثر مما كانوا يعرفون اذ طربوا حتى اذا جاعوا حسب قوانين الجوع الذي تقلدوه لهم تهتف حناجرهم "المسيح قام" وكأنهم يقولونها كل سنة المرة الاولى. ويكررونها في الفصح سبعين مرة عند الفجر وفي طفولتي كان ذلك قبل الفجر اذ لا ينبلج نور النشيد الا لينهي الظلام.

❦❦❦

كان الاغنياء الجدد يأتون من أحيائهم المتمدنة الى الفقراء ليحيوا معهم زوال الزمان. وفي البيعة يسمعون معا صباح الخميس العظيم: "اني تسلمت ما سلمتكم ايضا ان الرب يسوع في الليلة التي اسلم فيها أخذ خبزا وشكر وكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لاجلكم. كذلك الكأس أيضا بعدما تعشوا قائلا هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي" (1 كورنثوس 11 :23 – 25). "جسدي المكسور" هو الموضوع الوحيد الذي نتساوى فيه لانه وحده عندنا موضع الرجاء. اما ا ن يستعلي هذا او يبقى الاخر منكسرا بعد ارتشاف الكأس فهذا شأننا بعضنا مع بعض ولا ندين. المهم اننا يوم الاحد نتعلم فيه الاصطفاف أمام المائدة المقدسة مع صعاليك الارض. هذه عظمتك وان لم يكن لك شوق الانتماء الى حارة النصارى.

لماذا أخرج الرب منها جسدي ليلقيه في أحياء أخرى من الوجود فلست أعلم. الله يعلم. لماذا لم أبق مغمورا مثل أبي والاجداد أو معتما علي كما في دهليز جدتي. لماذا اخذت أقرأ الرواية في علية منزلها ومن الواضح ان من كان يقرأ كان يذهب الى حي آخر. لماذا أراد جدي لامي ان يشتري هذا البيت الذي بعد القبو وان يزوج اخته الى رومي؟ وكانت جدتي رومية. هل كان هذا ليلاحقني الاغريق في دمي وأنا من هذا الشرق السامي الذي أجلسني في سفر اشعياء وانجيل يوحنا. وليجيء من الاغريق من شاء وأما أنا فلا أزال اتبدى في صحارى الشرق حاملا قلة ماء وفتاتا مما تساقط عليّ من هنا وثمة منتظرا صباحات الاحاد لتهبط عليّ مائدة من السماء تكون عيدا لي في البوادي.

أما وقد بلغت من العمر ما بلغت فلست متأكدا من ان من أقرأني الكتب علمني أكثر مما كنت أعلم من هذه الكتب المتعتقة في الكنيسة التي لا تزال ذاكرة جدي لابي في قبتها اذ كانت صنع يديه. أضعف الايمان ان ما لا يمت بصلة الى تلك الكتب المحفوظة في كنيستنا لم يأتني بعمقها أو بعمق الانجيل الذي نسجت عليه وأنا لا اعترض على علم ولا على ثقافة وقد لا يغيب عني بعض من هذا ولكن ما في عمقي يأتي من هناك على ما أحسب. انا لا أزال أجيء من حينا العتيق الذي كان يحفظ من الانشاد ما يسمع ويردده ليحيا به.

ربما أعرف معنى ما لا نزال ننشده، ونتلوه. وأظن اني تمرست على قراءة النصوص ونقدها الادبي والتاريخي لافهمها وأقارن بينها واتهمت (بضم التاء) بأني أستلذها استلذاذ الشعراء اذ اقولها كما يتلو الشعراء قصائدهم. لست أعلم. الله يعلم. غير اني أعرف اني على طريقة أجهلها "اختطفت وسمعت كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لانسان ان يتكلم بها" (2 كورنثوس 12 :4). وأحسب إذاً ان ما قرأته بعد ذلك ما كان الا زخرفا لهذا الجمال الاول الذي نزل علي من الفردوس.

كان همي فقط ان اتلو العهد الجديد وبعضا من الانبياء على أبناء جنسي الذين ليست لهم هوية الارض وآمنت ان هذه التلاوات التي كنت اصوتها بلساني قادتني الى حيث أنا وارجو الله ان يحسب اني لم أخن واني ما توخيت في تلاوتي سوى مجده. ظن واحد من بعض الحي اني استطيب العربية وانها قد تلهيني عن عراء الناصري. قلت اني في حدسي القي هذه اللغة عند قدميه حتى اذا لامستهما شفتي اذهب الى العرب الذين جاء اجدادي من بقعة من بقاعهم وقد ازخرف على رغم ارادتي لاني كنت صانعا عند صائغ واعرف كيف كنا نموضع الالماسة في الذهب. ولكن كل قول البشر يموت مع البشر الا هذا الذي انزل عليهم. انهم لمبلغوه.

السؤال الذي قد يطرحه المؤمن على نفسه هو لماذا اخترتني النعمة الى العمل الذي اقوم به. هو لا يعرف نفسه كفيا اذ يدينه الله في اليوم الاخير ولكنه حريص على ان يضع كل مواهبه في سبيل ما اختير له. ولكن لكونه يرى النور وضاء يعرف قصوره وخطيئاته. والخطيئة في العربية هي التعثر في الطريق ولو عرفت الهدف. وهذا من الطبيعة الساقطة التي نحن عليها. ومن الناس من تحسس جسامة السقوط ومنهم من احس قليلا. هل يقدر اسقف على ان يطيع ما تطلبه منه المسؤولية وهو ان يجعل "كل انسان كاملا في المسيح يسوع؟". كيف يتصل بهذا الخروف الذي فوضت اليه رعايته؟ كيف يمده بالملء الالهي؟ هذا يفرض ان يكون الراعي ممتلئا من حضرة الله, ملتهبا بمحبته، يرشد بلا محاباة للوجوه، يتعلم دائما ليبقى مفصلا كلمة الله باستقامة", قائدا بكامل التواضع، لا يبغي ربحاً ولا نفوذا شخصيا ولا يهيمن على احد حتى تبقى الهيمنة للكلمة.

هذا كله مخيف اذا عرف هذا الرجل الكنز الذي استودع. غير ان الكلمة تقول: "لنا هذا الكنز في آنية خزفية" (2 كورنثوس 4 :7) اذ الكلمة تعبر منك الى السامع وكثيرا ما تغيره ولا تغيرك. اما الاناء الخزفي الذي هو نحن فقابل للانكسار كل حين. واذا ضرب (بضم الضاد) الراعي ماذا يبقى من الرسالة التي يحمل؟

كنت دائما اردد عبارة الاناء الخزفي نقلا عن بولس حتى قال لي احد الناس ولكن الاناء يحمل عطرا فتبقى كسر الاناء معطرة. وكنت اعرف انه يعزيني وجهدي الا يكسر الاناء بشيء من ضعفاتي. غير اني عالم ان الرب وحده يرمم الاناء قبل ان يكسره بالموت ويجمع اجزاءه المحكمة هو يوم القيامة. وعلى هذا الرجاء نتابع المسيرة.

المطران جورج خضر